

الفصل الأول

التطور السياسي في إقليم خوارزم في العصرين

السلجوقية والخوارزمية



أولاً: قيام دولة الأتراك السلجقة في نيسابور شوال ٤٢٩هـ / ١٠٣٧م

كانت معركة سرخس التي انتصر فيها السلجقة على الغزنويين هي النقطة الفاصلة في تاريخ السلجقة، حيث ملكوا بعدها خراسان، وكان هذا إيذاناً بقيام دولتهم، حيث سار طغرلبيك إلى نيسابور^(١) ودخلها ٤٢٩هـ / ١٠٣٧م، وجلس على عرش السلطان مسعود الغزنوي، في ذي القعدة من نفس العام، ولقب طغرلبيك نفسه بلقب سلطان، باسم السلطان المعظم ركن الدنيا والدين أبو طالب محمد^(٢). واستقر بدار السلطنة، وأمر أن تضرب النقود باسمه في البلاد التي كانت تحت أيديهم، وأعلن قيام دولته الجديدة^(٣). ولما بلغ السلطان مسعود خبر قيام الدولة السلجوقية، عزم على محاربتهم، والقضاء على دولتهم الوليدة^(٤)، فأعد جيشاً قوياً، وأراد أن يقود معركة انتحارية للخلاص من السلجقة^(٥).

كان السلجقة قد اطمأنوا على مؤخرتهم، حيث كان إقليم خوارزم في يد إسماعيل بن التونتاش الذي كان عدواً للغزنويين^(٦)، وفي نفس الوقت ٤٣٠هـ /

(١) نيسابور: بفتح أوله، والعامة يسمونها نساوور، إحدى مدن خراسان، وهي مدينة عظيمة ذات فضائل جسيمة ياقوت الحموي: معجم البلدان، مج ٤، ج ٨، ص ٤٢٢ - ٤٢٤.

(٢) الرواندي: راحة الصدور وآية السرور، ص ١٥٨، ابن الأثير: الكامل، مج ٨، ص ٢٢٧.

(٣) عباس إقبال: إيران بعد الإسلام، ص ٢٣٠، فتحى أبو سيف: الماوردي (عصره وفكره السياسي)، ط ١، مكتبة سعد رافت، القاهرة، ١٩٩٠م، ص ٣٦.

(٤) الرواندي: راحة الصدور، ص ١٦٢.

(٥) بارتولد: تركستان، ص ٤٤٨ - ٤٥٠، حسين أمين: تاريخ العراق في مصر السلجوقي، المكتبة الأهلية، بغداد، ١٩٦٥م، ص ٥٢.

(٦) ابن الأثير: الكامل، مج ٨، ص ٢٢٩، بارتولد: تركستان، ص ٤٤٧.

١٠٣٨م، أقر السلطان مسعود الغزنوي «شاه ملك» حاكم جند^(١) على إقليم خوارزم، فسار إليه وبه إسماعيل ابن التونتاش، فقاتله، ودامت الحرب بينهما مدة شهر، انهزم ابن التونتاش ولجأ إلى طغرل بك وملك شاه ملك خوارزم^(٢).

في الثامن من رمضان ٤٣١هـ / ١٠٤٠م^(٣)، خرج السلطان مسعود بجيشه الجرار، متجهاً إلى مرو، ومنها إلى نيسابور^(٤). ودارت معركة رهيبة بين السلاجقة والغزنويين، في مكان يعرف بداندنقان^(٥)، وانتهت بهزيمة السلطان مسعود الغزنوي، وولى منهزماً تاركا خزائنه وأمتعته وسائر ما يمتلك قانعا بالفرار والنجاة^(٦). وأصبح طغرل بك أول ملك من الترك السلجوقية، وهو الذي بنى هذه الدولة وسمى بالملك الرحيم^(٧).

ولتوطيد نفوذ السلاجقة الأتراك في تلك البلاد، عنى طغرل بك إلى الاستعانة بأفراد البيت السلجوقي لحكم البلاد التي بأيديهم، وقسم هذه البلاد فيما بينهم، وعين كل واحد منهم حاكماً على الولاية التي صارت من نصيبه^(٨).

وكان السلطان السلجوقي بحاجة إلى تفويض شرعي من الخليفة العباسي القائم بأمر الله (٤٢٢ - ٤٦٧هـ / ١٠٣٠ - ١٠٧٤م)، وذلك لحكم البلاد ليكسب حكمه صفة الشرعية أمام المسلمين على الرغم من كونها موافقة شكلية^(٩).

بدأ السلاجقة الاتصال بالخليفة العباسي القائم بأمر الله (٤٢٢ - ٤٦٧هـ / ١٠٣٠ - ١٠٧٤م) وذلك للحصول على شرعية لدولتهم^(١٠). وقد نجح السلاجقة في

(١) جند: بالفتح ثم السكون ودال مهملة اسم مدينة عظيمة في بلاد تركستان بينها وبين خوارزم مسيرة عشرة أيام، وأهلها مسلمون على مذهب أبي حنيفة ياقوت الحموي: معجم البلدان، مج ٢، ج ٣، ص ٨٠.

(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مج ٨، ص ٢٢٩، بارتولد: تركستان، ص ٤٤٧، ٤٤٨.

(٣) الحسيني: زبدة التواريخ، ص ٥.

(٤) البيهقي: تاريخ البيهقي، ص ٦٨٥.

(٥) داندنقان: وهي من مدن خراسان، وهي أكثر المدن حريراً، وبقطنها يضرب المثل في الجود ويجهز منها إلى البلاد، أبو الفدا: تقويم البلدان، ص ٤٥٩.

(٦) الرواندي: راحة الصدور، ص ١٦٣، فتحى أبو سيف: الماوردي، ص ٣٧.

(٧) ابن الجوزي: المنتظم، ج ١٥، ص ٤٣٩، ابن خلكان: وفيات الأعيان، مج ٥، ص ٦٤، فاضل الخالدي: الحياة السياسية ونظم الحكم في العراق في القرن الخامس الهجري، بغداد، ١٩٦٩م، ص ١٤٣.

(٨) الرواندي: راحة الصدور، ص ١٦٧، البنداري: آل سلجوق، ص ١٠، عباس إقبال: إيران بعد الإسلام، ص ٢٣٠، ٢٣١.

(٩) حسين أمين: تاريخ العراق في العصر السلجوقي، ص ٥٢، فتحى أبو سيف: المصدر السابق، ص ٣٧.

(١٠) حسين أمين: المصدر السابق، ص ٥٥، محمد محمود إدريس: تاريخ العراق والشرق، ص ٩٢، محمد عبد العظيم: السلاجقة، ص ٥٤.

مساعيهم، وتم لهم ما أرادوا حيث أرسل الخليفة إلى طغرل بك الخلع^(١) السلطانية، مع كتاب تفويض بحكم البلاد^(٢).

وهكذا أصبح للسلاجقة كيان سياسى، ورقة كبيرة من الأرض، وحاكم له الزعامة التى منحها إياه رعاياه^(٣)، ثم أخذوا فى الاستمرار لمواصلة سياستهم التوسعية بعد اعتراف الخلافة بدولتهم، فقدّر لهم الاستيلاء والسيطرة على كثير من أقاليم خراسان وما وراء النهر وخوارزم والعراق^(٤).

ثانيا: استيلاء السلاجقة على إقليم خوارزم ٤٣٤هـ / ١٠٤٢م:

كان يحكم خوارزم من قبل السلطان مسعود الغزنوى «إسماعيل بن التونتاش» ٤٢٦هـ / ١٠٣٥م، وكان يكره الغزنويين^(٥)، فاستعان السلطان محمود بالأمير شاه ملك^(٦)، فسار إلى خوارزم، وهزم إسماعيل وكان معه رجل يدعى «شكر» خادم أبيه، فهزمهما شاه ملك وملك الإقليم، فسار إلى طغرل بك وداود السلجوقيين وطلبا المعونة منهما، فسار داود معهما إلى خوارزم فلقىهم شاه ملك وهزمهم^(٧)، واستمر الحال على ذلك، حتى قتل السلطان مسعود سنة ٤٣٣هـ / ١٠٤١م، وظل إقليم خوارزم على حاله بيد شاه ملك، الذى دخل فى طاعة مودود بن مسعود الغزنوى^(٨).

وفى سنة ٤٣٤هـ / ١٠٤٢م توجه طغرل بك إلى إقليم خوارزم حيث وطد

(١) الخلع: جمع خلعة وهى ثوب يلبسه الحاكم نفسه ويعطيه كهدية بعد أن يخلعه من فوق جسده، وكان هذا التصوف يعتبر أصلا بمثابة وعد شخصى بالأمان أكثر منه رمز للتكريم، ثم أصبحت بعد ذلك بمثابة هدية شائعة وتقدم فى المناسبات، وكان رفض الخلعة يعتبر إساءة خطيرة أو إعلان العصيان أو على الأقل المجاهرة بالعداء. السيد محمد عاشور: صناعة الأقمشة وتجارة الملابس وتطورها، دار الاتحاد العربى للطباعة، بدون، ج ٣، ص ٨٣.

(٢) البندارى: آل سلجوق، ص ٩، دونالدولبر: إيران ماضيها وحاضرها، ترجمة د. عبد النعيم حسانين، ط ٢، دار الكتاب المصرى، القاهرة، دار الكتاب اللبنانى، بيروت، ١٩٨٥م، ص ٥٩، محمد مسفر الزهرانى: نفوذ السلاجقة السياسى فى الدولة العباسية، ط ١، بيروت، لبنان، ١٩٨٠م، ص ٥٥.

(٣) فامبرى: تاريخ بخارى، ص ١٣٤.

HOLT: The Combriade of Islam, (London, 1961), P. 232

OSBORN: ISLAM Under the Khalifs of Bagh Dad, (London 1978), P. 319. (٤)

(٥) ابن الأثير: الكامل، مج ٨، ص ٢٢٩، بارتولد: تركستان، ص ٤٤٧.

(٦) ابن خلدون: العبر، مج ٤، قسم ٤، ص ٤٦٣، بارتولد: تركستان، ص ٤٤٧.

(٧) ابن الأثير: الكامل، مج ٧، ص ٢٥٦.

(٨) البيهقى: تاريخ البيهقى، ص ٧٥٨، عباس إقبال: إيران بعد الإسلام، ص ٢٣١.

الخوارزميون صلاتهم بالجماعات البدوية على حدود ما وراء النهر، وارتبطوا معهم بعلاقات تجارية، فكانوا مثار قلق للسلطان طغرلبك^(١) فسار إلى إقليم خوارزم فحاصره واستطاع أن يهزم شاه ملك، واستصحب أمواله وذخائره^(٢)، ويقول الحسيني^(٣): قصد الملك داود بن ميكائيل خوارزم، وفتح هزار أسب في أسبوع، ثم فتح الجرجانية، ثم تيسر له فتح سائر الإقليم، وبذلك استقر إقليم خوارزم في ملك طغرلبك^(٤) وانضم إلى البلاد السلجوقية^(٥).

وفي سنة ٤٤٦هـ / ١٠٤٥م، ثار قائد جيش خوارزم، على حاكم خوارزم حتى اضطره للاستنجاد بالسلاجقة، فسير طغرلبك إليه أخاه جغرى (داود) الذى استطاع أن يضبط أمور خوارزم^(٦)، ويعيد الأمير إلى عرشه على أن يكون تابعا للسلاجقة^(٧).

وعلى هذا الأساس سار خلفاء طغرلبك، بعد وفاته ٤٥٥هـ / ١٠٦٣م^(٨)، فقد تولى ألب أرسلان ٤٥٥ - ٤٦٥هـ / ١٠٦٣ - ١٠٧٢م^(٩)، وفي سنة ٤٥٧هـ / ١٠٦٥م عبر ألب أرسلان نهر جيحون حتى وصل إلى الجرجانية (كركانج)^(١٠)، وفوض إمارة خوارزم إلى ولده أرسلان أرغون^(١١)، واستطاع أن يعيد الأمن والاستقرار لهذا الإقليم^(١٢).

وفي سنة ٤٦٥هـ / ١٠٧٢م توفى السلطان ألب أرسلان، وذلك حينما وصل إلى قلعة فيها مستحفظ خوارزمي يسمى «يوسف» فقبحه السلطان على أفعال قبيحة كانت منه وتقدم أن يضرب له أربعة أوتاد وتشد أطرافه إليها فقال له يوسف، يا مخنث مثلى يقتل هذه القتلة، فاحتد السلطان وأخذ القوس والنشابة، فقال حلوه، فرماه بسهم فأخطاه فعدا

(١) حسن أحمد محمود: الإسلام في آسيا الوسطى، طبعة ١٩٧٢، القاهرة، ص ١٨٩.

(٢) ابن الأثير: الكامل، مج ٨، ص ٢٥٦، ابن خلدون: العبر، مج ٤، قسم ٤، ص ٤٦٣.

(٣) زبدة التواريخ، ص ٧٣.

(٤) أبو الفدا: المختصر، مج ١، ج ٢، ص ١٦٦.

(٥) بارتولد: تركستان، ص ٤٤٩، عباس إقبال: إيران بعد الإسلام، ص ٢٣٢.

(٦) فامبرى: تاريخ بخارى، ص ١٣٤، محمد محمود إدريس: تاريخ العراق والشرق، ص ١٣٧: ١٣٨.

(٧) فامبرى: تاريخ بخارى، حاشية ٢، ص ١٣٤.

(٨) البندارى: آل سلجوق، ص ٢٧، ابن خلكان، وفيات الأعيان، مج ٥، ص ٦٧.

(٩) ابن الأثير: الكامل، مج ٥، ص ٣٦٥، البندارى: المصدر السابق، ص ٣٠.

(١٠) أبو الفدا: المختصر، مج ١، ج ٢، ص ١٨٥.

(١١) الحسيني: زبدة التواريخ، ص ٩٧، يذكر ابن الأثير أن أرسلان أرغون أخاه الكامل، مج ٨، ص ٣٧٥.

(١٢) فامبرى: تاريخ بخارى، ص ١٣٧، محمد محمود إدريس: تاريخ العراق، ص ١٤٣.

يوسف إليه فنهض السلطان فتعثر فوق على وجهه فبرك عليه يوسف وضربه بسكين كانت معه، فلحقه الجند فقتلوه، واشتدت جراح السلطان وعاد إلى جيحون فتوفى. وملك بعده السلطان ملكشاه (٤٦٥ - ٤٨٥هـ / ١٠٧٢ - ١٠٩٢م)، وملك ما لم يملكه أحد من ملوك الإسلام بعد الخلفاء، فكان في مملكته جميع أقاليم ما وراء النهر وخوارزم^(١).

وفي سنة ٤٧٠هـ / ١٠٧٧م استقل والى إقليم خوارزم به، ولكن ملكشاه أجبره على الدخول في طاعته^(٢)، وجعل على خوارزم نوشتكين^(٣). وكان غلاماً رقى بجده إلى قيادة الجيش العليا وأسس بعد ذلك بيت الخوارزميين^(٤).

وهكذا بلغت الدولة السلجوقية في عهد السلطان ملكشاه درجة كبيرة من النفوذ والتوسع، وذكر اسمه في الخطبة، ونقش على السكة^(٥) في مملكته ومنها خوارزم^(٦).

توفى السلطان ملكشاه ٤٨٥/١٠٩٢م، وله من الأولاد أربعة بنين وهم بركيارق، ومحمد، وسنجر ومحمود، وكان محمود طفلاً، وكانت أمه مستولية أيام ملكشاه، فبايعوه على السلطنة، وكان بركيارق أمه سلجوقية، ولم تنقض سنه، حتى مات محمود^(٧)، وتولى الملك بركيارق (٤٨٦ - ٤٩٨هـ / ١٠٩٣ - ١١٠٥م)، ومدة ملكه اثنتي عشرة سنة^(٨).

(١) ابن الجوزي: شذور العقود في تاريخ العهود، مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٩٩٤، تاريخ ميكروفيلم ٣٥٨٢٦، ورقة ١٤٥، ١٤٤. ولقد أجمع المؤرخون على هذه الرواية ابن الأثير: الكامل، مج ٨، ص ٣٩٣، البنداري: آل سلجوق، ص ٤٧، الرواندي: راحة الصدور، ص ١٩٠، ١٩١، الحسني: زبدة التواريخ، ص ١١٧: ١١٩، ابن كثير: البداية والنهاية، مج ٦، ج ١٢، ص ١١٤.

(٢) الرواندي: راحة الصدور، ص ١٩٤، الحسني: المصدر السابق، ص ١٤٧ - ١٤٨.

(٣) نوشتكين: كان إقليم خوارزم في زمن السلاجقة مجرد إقطاع يخضع في إدارته لحامل الطشت (طشتدار) وعلى هذا أقطعه ملكشاه لقائده نوشتكين فامبري: تاريخ بخارى، ص ١٤٧، والطشت: هو الذي تغسل فيه الأيدي، كما يغسل فيه القماش، وفي الطشت خاناه يكون ما يلبسه السلطان من الثياب والسيف القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٤، ص ١٠.

(٤) فامبري: تاريخ بخارى، ص ١٣٩.

(٥) السكة: هي الختم على الدنانير والدراهم المتعامل بها بين الناس بطابع حديد ينقش فيه صور أو كلمات مقلوبة ويضرب بها الدينار أو الدرهم، فتخرج رسوم تلك النقوش عليها ظاهرة مستقيمة الأب أنستاس ماري الكرملى البغدادي: النقود العربية وعلم النميات، المطبعة العصرية، القاهرة، ١٩٣٩م، ص ١٣٥.

(٦) فامبري: تاريخ بخارى، ص ١٣٨، محمد محمود إدريس: تاريخ العراق، ص ١٥٠.

(٧) البنداري: آل سلجوق، ص ٨١.

(٨) الرواندي: راحة الصدور، ص ٢١٤، عباس إقبال: إيران بعد الإسلام، ص ٣٦٢.

وكان عز الملك أبو الحسين بن نظام الملك^(١)، مقيماً بإقليم خوارزم حاكماً عليه، فيما يتعلق بكل أمور السلطة، ولما قتل والده خرج منه^(٢)، وكان على خوارزم منذ زمن ملكشاه نوشتكين، وظل به حتى توفي ٩٠٤هـ/ ١٠٩٦م^(٣)، وخلفه ابنه محمد قطب الدين ٤٩١ - ٥٢١هـ/ ١٠٩٧ - ١١٢٧م، حاكماً على خوارزم وكانت دولته بخوارزم ثلاثين سنة^(٤).

وتوجه بركيارق إلى خراسان لمحاربة عمه أرسلان أرغون، وأرسل في المقدمة أخاه «سنجر»، ثم تبعه في جيش جرار، وكان ذلك في سنة ٤٨٩هـ/ ١٠٩٥م، فقتل أرسلان أرغون، فتملكها السلطان بركيارق^(٥)، وتولى سنجر خراسان من قبل بركيارق^(٦).

توفي السلطان بركيارق سنة ٤٩٨هـ/ ١١٠٥م، وتولى أخوه السلطان محمد بن ملكشاه^(٧)، وزادت قوة السلطان سنجر بخراسان، فأقر محمد بن نوشتكين على خوارزم وأعماله فظهرت كفايته وشهامته فعظم سنجر محله وقدره^(٨)، وأقام السلطان محمد في السلطة مدة، ثم مرض زماناً طويلاً، إلى أن توفي ٥١١هـ/ ١١١٧م^(٩)، وخلف خمسة بنين هم: محمود، ومسعود، وطغرل، وسليمان، وسلجق، وكل منهم تولى السلطنة، سوى سلجق^(١٠).

وفي سنة ٥١٢هـ/ ١١١٨م مخطب للسلطان محمود بن محمد بن ملكشاه^(١١)، وحدث الخلاف بين محمود وسنجر^(١٢)، وجمع السلطان محمود عسكره، والتقوا في سنة ٥١٢هـ/ ١١١٨م، فانهزم السلطان محمود، ولكن السلطان سنجر طمئنه وأخبره أنه إنما جاء لإصلاح أمره^(١٣).

(١) البنداري: آل سلجوق، ص ٨٢.

(٢) ابن الأثير: الكامل، مج ٨، ص ٤٨٧.

(٣) فامبري: تاريخ بخارى، ص ١٣٩، كليفورند أ. بوزورث: الأسرات الحاكمة، ص ٤٦.

(٤) الذهبي: تهذيب سير أعلام النبلاء، ج ٢، ص ٥٢٢.

(٥) السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص ٥٠٤.

(٦) الرواندي: راحة الصدور، ص ٢٢١.

(٧) الرواندي: راحة الصدور، ص ٢٣٤، الحسيني: زبدة التواريخ، ص ١٦٧.

(٨) ابن الأثير: الكامل، مج ٩، ص ١٠، عباس إقبال: إيران بعد الإسلام، ص ٢٨٣.

(٩) ابن خلكان: وفيات الأعيان، مج ٥، ص ٧٣.

(١٠) البنداري: آل سلجوق، ص ١١٣، الحسيني: زبدة التواريخ، ص ١٧١.

(١١) ابن الجوزي: المنتظم، ج ١٧، ص ١٦١.

(١٢) البنداري: آل سلجوق، ص ١١٥.

(١٣) الحسيني: زبدة التواريخ، ص ١٧٩.

توفى محمد بن نوشتكين سنة ٥٢١هـ/١١٢٧، وتولى ابنه آتسز^(١)، وعندما استولى السلطان سنجر على سمرقند^(٢)، عام ٥٢٤هـ/١١٢٩م، أخضع خوارزم تحت حكمه، وأبقى على آتسز بن محمد بن نوشتكين ملك خوارزم^(٣) (٥٢٢ - ٥٥٢هـ/١١٢٨ - ١١٥٧م)، فمد ظلال الأمن وأفاض العدل وقربة السلطان سنجر وظل على وفاق معه وكان يصحبه معه في حروبه^(٤)، وظهرت كفايته، حيث كان كفؤاً واسع الأطماع، ومن ثم عمل في الوقت نفسه على الإفادة من ازدياد قوته ليتحرر من سلطان سنجر^(٥).

ولما أطمأن آتسز إلى قوته حاول أن يجعل دولته مستقلة استقلالاً تاماً عن السلاجقة، وعمل على توسيع رقعة دولته على حساب الدولة السلجوقية الضعيفة.

وعندما توفى السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه سنة ٥٢٥هـ/١١٣٠م، تولى بعده أخوه طغرل^(٦)، حتى توفى ٥٢٩هـ/١١٣٤م^(٧)، وملك بعده السلطان مسعود بن محمد بن ملكشاه (٥٢٩ - ٥٤٧هـ/١١٣٤ - ١١٥٢)^(٨)، وقام بالأمر بعده أربعة سلاطين، ذكرهم البنداري^(٩): محمد بن محمود بن محمد ملكشاه، تولى سنة ٥٤٨هـ/١١٥٣م، والسلطان سليمان بن محمد ملكشاه (وتوفى سنة ٥٥٥هـ/١١٦٠م)، ثم أرسلان بن طغرل ابن محمد (٥٥٦ - ٥٧١هـ/١١٦١ - ١١٧٦م) ثم آخر السلاطين

(١) الذهبي: تهذيب سير الأعلام النبلاء، ج ٢، ص ٥٢٢، آتسز: كلمة تركية معناها من لا اسم له (آت = اسم، سيز = أداة التجريد) وقد جرت العادة عند الترك أن من يموت بنوه صغاراً يسمى واحداً منهم آتسز حتى يعيش ولا يهلك. النظامي العروضي: جهاز مقالة، حواشي المقالة الأولى، حاشية ٢٦، ص ١٠٩.

(٢) سمرقند: يقال لها بالعربية سمران، بلد مشهور، من أقاليم ما وراء النهر وهي قصبة الصغد، ياقوت الحموي: معجم البلدان، مج ٣، ج ٥، ص ٦٦.

(٣) الرواندي: راحة الصدور، ص ٢٢٧، حسن إبراهيم: (د. حسن إبراهيم حسن، د. علي إبراهيم حسن)، النظم الإسلامية، ط ٢، مكتبة النهضة المصرية القاهرة، مطبعة السنة المحمدية، ١٣٨١هـ/١٩٦٢م، ص ٧٦.

(٤) عباس إقبال: إيران بعد الإسلام، ص ٣٨٢، عبد النعيم حسنين: سلاجقة إيران والعراق، ص ١١٩.

(٥) فامبري: تاريخ بخارى، ص ١٤٨، مصطفى دسوقي: المسلمون في آسيا الوسطى، ص ١٦٨.

(٦) البنداري: آل سلجوق، ص ١٤٥.

(٧) ابن الجوزي: المنتظم، ج ١٧، ص ٣٠٣، ابن كثير: البداية والنهاية، مج ٦، ج ١٢، ص ١٢٢٦، ويذكر البنداري أنه توفى سنة ٥٢٨هـ/١١٣٣م. آل سلجوق، ص ١٥٩.

(٨) البنداري: آل سلجوق، ص ١٦١، كليفور. أ. بوزرث: الأسرات الحاكمة، ص ١٦٧.

(٩) آل سلجوق، ص ٢٠٩ وما بعدها، ابن كثير: البداية والنهاية، مج ٦، ج ١٢، ص ٢٤٧.

أبو طالب طغرل بن أرسلان بن طغرل ابن محمد بن ملكشاه (٥٧١ - ٥٩٠ هـ / ١١٧٦ - ١١٩٤ م)^(١).

ذكرنا في عجالة سريعة سلاطين السلاجقة من ٥٢٥ - ٥٩٠ هـ / ١١٣٤ - ١١٩٤ م لأنهم خارج نطاق البحث، حيث لم يكن لهم دور مؤثر في إقليم خوارزم، كما لم يكن لهم دور بارز في الصراع السلجوقي الخوارزمي، حيث كان الصراع بين السلطان سنجر السلجوقي الذي ناب في السلطة عن أخيه بركيارق سنة ٤٩٠ هـ / ١٠٩٦ م، واستقل بالسلطنة سنة ٥١٢ هـ / ١١٨ م، عقب موت أخيه السلطان محمد بن ملكشاه، وبين آتسز الخوارزمي حاكم خوارزم.

ثالثاً: الصراع السلجوقي الخوارزمي بين سنجر وآتسز (٥٣٣ - ٥٥٢ هـ / ١١٣٨ - ١١٥٧ م).

كان آتسز في الأعوام الأولى من ولايته التابع المخلص للسلطان سنجر^(٢)، وكان سنجر يستصحبه معه في أسفاره وحروبه فظهرت منه الكفاية والشهامة فزاده تقدماً وعلواً^(٣) وعمل آتسز على الإفادة من ازدياد قوته ليتحرر من سلطان السلطان سنجر^(٤)، وفي سنة ٥٣٣ هـ / ١١٣٨ م، بلغ سنجر أن آتسز يحدث نفسه بالامتناع عليه وترك الخدمة له^(٥)، وحاول أن يجعل دولته مستقلة استقلالاً تاماً عن السلاجقة، كما عمل على توسيع رقعة دولته على حساب الدولة السلجوقية المتداعية^(٦).

فقصده السلطان سنجر خوارزم، فلما قرب من خوارزمشاه آتسز خرج إليه في عسكره، فاقتتلوا فلم يكن للخوارزمية قوة بالسلطان فلم يلبثوا وولوا منهزمين وقتل منهم خلق كثير^(٧) ومن جملة القتلى ولد لخوارزمشاه فحزن عليه حزناً شديداً، واستولى سنجر على إقليم خوارزم^(٨) وأقطع غياث الدين سليمان شاه بن محمد بن ملكشاه، وعاد

(١) الرواندي: راحة الصدور، ص ٧٣، البنداري: آل سلجوق، ص ٢١٢ - ٢٦٧.

(٢) بارنولد: تركستان، ص ٤٧٤.

(٣) ابن الأثير: الكامل، مج ٩، ص ١١.

(٤) فاميري: تاريخ بخارى، ص ١٤٨.

(٥) ابن الأثير: نفسه، ص ٣٠٩، بارنولد: تركستان، ص ٤٧٤.

(٦) عبد النعيم حسانين: سلاجقة إيران والعراق، ص ١١٩، الغنيمي: الإسلام والمسلمون، ص ٩٣.

(٧) ابن الأثير: الكامل، مج ٩، حتى ٣٠٩، أبو الفدا: المختصر في أخبار البشر، مج ٢، ج ٣، ص ١٥، ١٦.

(٨) أبو الفدا: المختصر، مج ٢، ج ٣، ص ١٦، ابن كثير: البداية والنهاية، مج ٦، ٢، ص ٢٣١.

سنجر إلى مرو في جمادى الآخر من هذه السنة، فانتهاز آتسز الفرصة ورجع إلى إقليم خوارزم وكان أهله يكرهون العسكر السنجرى، فلما عاد آتسز أعانوه على ملك الأقاليم ففارقه سليمان شاه، واعتلى عرش خوارزم ثانية، وفي سنة ٥٣٥هـ / ١١٤٠م، أرسل رسالة قسم إلى سنجر وتعهده أن يبقى على الطاعة^(١).

وفي سنة ٥٣٦هـ / ١١٤١م، راسل آتسز، كورخان الخطائى^(٢)، فيما وراء النهر، بطمعه فى البلاد، ويحثه على قصد مملكة السلطان سنجر، فسار فى ثلاثمائة ألف فارس، وسار إليهم سنجر وعساكره، والتقوا بما وراء النهر، على باب سمرقند فى موضع يقال له قطوان^(٣)، واقتتلوا قتالا شديدا فانهزم سنجر وعساكره، وقتل منهم مائة ألف قتيل منهم اثنا عشرة ألفا كلهم صاحب عمامة، وأربعة آلاف امرأة^(٤)، وأسرت زوجة السلطان سنجر، وتم السلطان منهزما^(٥).

ولما تمت الهزيمة على السلاجقة سار آتسز إلى خراسان ونهب من أموال سنجر شيئا كثيرا، كما استقرت دولة الخطا والترك بما وراء النهر^(٦).

وفي سنة ٥٣٨هـ / ١١٤٣م، سار السلطان سنجر إلى خوارزم، فجمع خوارزمشاه آتسز عساكره، وتحصن بالمدينة، ولم يخرج منها للقتال، لعلمه أنه لا يقوى على سنجر، وكان القتل يجرى بين الفريقين، من وراء السور، فلما رأى السلطان قوة البلد، وامتناعه، عزم على العودة إلى مرو، ولكن أرسل آتسز رسلا يبذل المال والطاعة، والخدمة، ويعود إلى ما كان عليه من الانقياد، فأجابه إلى ذلك، واصطلحا وعاد سنجر إلى مرو، وأقام خوارزمشاه بخوارزم^(٧).

(١) ابن الأثير: الكامل، مج ٩، ص ٣٠٩.

(٢) كورخان: هو صاحب دولة الحظا فيما وراء النهر، وكان أغلب السلاطين الخوارزمشاهية يدفعون الجزية لهم حتى تغلبوا عليهم، حين هزمهم علاء الدين محمد خوارزمشاه (٥٩٦ - ٦١٧هـ / ١١٩٩ - ١٢٢٠م). النظامى العروضى: جهاز مقالة، حواشى المقالة الأولى، حاشية (٢٤)، ص ١٠٧: ١٠٨.

(٣) قطوان: قرية من قرى سمرقند على بعد خمسة فراسخ منها، ياقوت الحموى: معجم البلدان، مج ٤، ج ٧، ص ٧١.

(٤) ابن الأثير: الكامل، مج ٩، ص ٣١٩، عباس إقبال: إيران بعد الإسلام، ص ٢٨٥.

(٥) أبو الفدا: المختصر، مج ٢، ج ٣، ص ١٦، ابن الوردى: زين الدين عمر بن مظفر الشهير بابن الوردى، ت ٧٤٩هـ / ١٣٤٨م، تاريخ ابن الوردى، جزآن، ط ١، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ١٤١٧هـ / ١٩٩٦م، ج ٢، ص ٤٣.

(٦) أبو الفدا: المصدر السابق، مج ٢، ج ٣، ص ١٦، ابن الوردى: المصدر السابق، ج ٢، ص ٤٣.

(٧) ابن الأثير: الكامل، مج ٩، ص ٣٢٩، ٣٣٠، عباس إقبال: إيران، ص ٢٨٦.

وفى سنة ٥٤٢هـ/ ١٤٤٧م قام السلطان سنجر بحملته الثالثة على خوارزم، فحاصر هزاراسب، واستولى عليها بعد شهرين، ثم زحف على عاصمة آتسز، ولكن السلطان سنجر وافق على الصلح، غير أن آتسز على غير العادة المتبعة لم يقبل الأرض بين يدي السلطان، بل ولم يرتجل عن صهوة جواده واكتفى بأنحاء رأسه، وبرغم ذلك فإن سنجر لم يجد ضرورة لتجديد القتال بسبب هذا القصور فى واجب الاحترام الذى بدر من أتباعه، وعاد إلى مرو فى المحرم سنة ٥٤٣هـ/ ١١٤٨م^(١).

وفى سنة ٤٣٨هـ/ ١١٥٣م، جرت حادثة بخراسان كانت لصالح مخطط آتسز^(٢)، وهى حادثة الغز، وهم فرسان من التركمان كان مقامهم ومرعاهم بختلان^(٣)، وكانوا كل عام يدفعون خراجا قدرة أربعة وعشرون ألف رأس من الغنم يقدمونها لمطبخ السلطان ووصل الخبر يعلو شأن هؤلاء الغز^(٤)، وخرجت الغز على السلطان سنجر، فالتقاهم السلطان فهزموه واستباحوا عسكره وأسروه، وعذبوا الرعية، وفعلوا كل قبيح، وأبقوا الخطبة باسم سنجر، ولكنه بقى معهم صورة، فذاق الذل والجوع^(٥)، وفى سنة ٥٥١هـ/ ١١٥٦م، هرب السلطان سنجر من أسر الغز، وجماعة من الأمراء الذين معه، وسار إلى قلعة ترمذ، واستظهر بها على الغز، وكان خوارزمشاه آتسز يغازى الغز، فيقاتلهم، فكانت الحرب بينهم سجالا وغلب كل واحد من الغز، والخراسانيين، على ناحية من خراسان^(٦).

وفى نفس العام توفى آتسز بن محمد نوشتكين، وخلفه ابنه إيل أرسلان^(٧)، وفى العام التالى ٥٥٢هـ/ ١١٥٧م توفى السلطان سنجر بن ملكشاه^(٨).

(١) بارتولد: تركستان، ص ٤٧٨، عباس إقبال: إيران بعد الإسلام، ص ٢٨٧.

(٢) بارتولد: نفسه، ص ٤٨٠.

(٣) ختلان: بفتح أوله وتسكين ثانية وآخره نون، بلاد مجتمعة وراء النهر قرب سمرقند، ياقوت الحموى: معجم البلدان، مج ٢، ج ٣، ص ٢١٥.

(٤) الرواندى: راحة الصدور، ص ٢٦٨.

(٥) الذهبى: شمس الدين أبى عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان الذهبى: ت ٧٤٨هـ/ ١٣٤٧م، دول الإسلام، جزءان، تحقيق حسن إسماعيل مروة، وقدم له محمود الأرنؤوط، ط ١، دار صادر بيروت، ١٩٩٩م، ج ٢، ص ٤٩، لمزيد من التفاصيل عن حادثة الغز، راجع ابن الأثير: الكامل، مج ٩، ص ٤٠٩ وما بعدها، ابن كثير: البداية والنهاية، مج ٦، ج ١٢، ص ٢٤٩.

(٦) ابن الأثير: الكامل، مج ٨، ص ٤٠٧.

(٧) أبو الفدا: المختصر فى أخبار البشر، مج ٢، ج ٣، ص ٣٠، ابن الوردى: تاريخ ابن الوردى، ج ٢، ص ٥٥.

(٨) ابن كثير: البداية والنهاية، مج ٦، ج ١٢، ص ٢٥٥.

رابعاً: نهاية السلاجقة ٥٩٠هـ / ١١٩٣م:

ب وفاة سنجر انتهت القوة السلجوقية تماماً من بلاد فارس وخراسان ولم يجد الخوارزميون بعده منافساً يقف أمامهم ويعوق سبيل توسعهم، فخلا لهم الجو تماماً^(١). وخلفه على خراسان محمود خان ابن أخته، فأقام خائفاً من الغز^(٢)، وخلف آتسز على خوارزم ابنه إيل أرسلان، فأرسل إلى محمود خان يهنئه ويخبره بأنه قد أعلن الحداد ثلاثة أيام بخوارزم حزناً على السلطان سنجر، غير أن خوارزمشاه إيل أرسلان في رسالته يدعوا نفسه «الصديق المخلص»، بينما كان آتسز يدعوا نفسه في رسائله إلى سنجر «عبدك»^(٣).

ولقد استطاع إيل أرسلان (٥٥٢ - ٥٦٨هـ / ١١٥٧ - ١١٧٢م)، أن يبسط سلطانه على غربي خراسان عقب وفاة سنجر^(٤)، وأخذ يعمل على تقوية دولته دون أن يخشى القوة التي وقفت في وجه أسلافه من الخوارزميين، فالحقيقة أن دولة السلاجقة في فارس انتهت تماماً ب وفاة سنجر، وانقرض خلفاؤه بعد أن عجزوا عن مقاومة دولة الخوارزميين الفتية^(٥)، حيث أنه في سنة ٥٥٥هـ / ١١٦٠م توفي السلطان محمد بن محمود بن محمد بن ملكشاه، وملك بعده عمه سليمان شاه بن محمد بن ملكشاه حتى ٥٥٦هـ / ١١٦٠م^(٦)، ثم تولى أرسلان بن طغرل بن محمد بن ملكشاه وكانت مدة ملكه خمس عشرة سنة، وسبعة أشهر ٥٥٦ - ٥٥٧هـ / ١١٦٠ - ١١٧٥م^(٧) ويقال في هذه الفترة ٥٥٣هـ / ١١٥٨م أن أقاليم ما وراء النهر بعثت بوفد من أهلها إلى إيل أرسلان تستنجد من مظالم أمير سمرقند واعتداءاته، فأسرع إيل أرسلان، هناك في قوة كبيرة، وفتحت له بخارى أبوابها سلماً، إلا أنه لم يستطع بعد ذلك أن يواجه ذلك الجيش الذي حشده عدوه بظاهر سمرقند، ووافق على الصلح، ثم رجع إلى خوارزم^(٨).

(١) الحسيني: زبدة التواريخ، ص ٢٣٥.

(٢) ابن الأثير: الكامل، مج ٩، ص ٤١٦، ابن الوردي: تاريخ، ج ٢، ص ٥٨.

(٣) بارتولد: تركستان، ص ٤٨٣، حافظ أحمد حمدي: الدولة الخوارزمية والمغول، دار الفكر العربي، القاهرة، بدون، ص ٢٨.

(٤) Skrine & Ross: (Skrine francis he nry and Ross Edward), The heart of ASIA, London, 1899, P140.

(٥) حافظ أحمد حمدي: الدولة الخوارزمية، ص ٢٨.

(٦) أبو الفدا: المختصر، مج ٢، ج ٣، ص ٣٤، ابن الوردي: تاريخ ابن الوردي، ج ٢، ص ٦١.

(٧) الرواندي: راحة الصدور، ص ٤٠٣.

(٨) فامبري: تاريخ بخارى، ص ١٤٩، بارتولد: تركستان، ص ٤٨٥.

وساد الهدوء ست سنوات دعم فيها إيل أرسلان حكومته في خراسان وذلك بعد أن طرد محمود خان آخر سلاجقة خراسان، عن عرشه وسمل عينية وذلك سنة ٥٥٨هـ/١١٦٢م^(١).

وفي سنة ٥٦٧هـ/١١٧م، عبر الخطى نهر جيحون، يريدون إقليم خوارزم، فسار صاحبها إلى إيل أرسلان، فجمع عساكره، وسار إلى أموية^(٢) ليقاتلهم، ويصدهم، فمرض وأقام بالإقليم وسير بعض جيشه مع أمير كبير إليهم، فلقاهم فاقتتلوا قتالا شديدا، فانهزم الخوارزميون، وأسر مقدمهم، ورجع به الخطى إلى ما وراء النهر، وعاد خوارزم شاه إيل أرسلان إلى خوارزم مريضا^(٣).

وفي سنة ٥٦٨هـ/١١٧٢م توفي خوارزمشاه إيل أرسلان بن آتسز بن محمد بن نوشتكين، فتملك بعده سلطان شاه محمود، وكان ابنه الآخر تكش^(٤) مقيماً على مدينة جند^(٥). ليبدأ بذلك صراعاً آخر في البيت الخوارزمي بين الأخوين من ناحية وبين الخوارزميين وآخر سلاطين السلاجقة من ناحية أخرى.

على أن تكش عندما بلغه موت أبيه، وتولية أخيه، الصغير، قصد ملك الخطا على أن يدفع له الجزية السنوية^(٦)، فسير معه جيشاً كثيفاً، فساروا حتى قربوا خوارزم، فخرج سلطان شاه وأمه إلى المؤيد^(٧)، صاحب نيسابور، واستولى تكش على البلاد، ثم التقى هو والمؤيد، فانهزم عسكر المؤيد، وأسر وذبح صبوا، وهرب محمود وأمه إلى دهستان^(٨)، فقصده تكش، فافتتح المدينة عنوة، فهرب سلطان شاه محمود، وأسرت أمه، فقتلها تكش، وعاد إلى خوارزم^(٩).

(١) فامبرى: نفسه، ص ١٤٩: ١٥٠.

(٢) أموية: وهى أمل جيحون وأمل زم وأمل الشط وأمل المفازة لأن بينها وبين مرو رمال صعبة المسالك ومفازة أشبه بالمهلك وتسمى أيضا آموان وربما ظن قوم أن هذه الأسماء لعدة مسميات وليس الأمر كذلك. ياقوت: البلدان: مج ١، ج ١، ص ٥٧: ٥٨.

(٣) ابن الأثير: الكامل، مج ١٠، ص ٣٧، ٣٨.

(٤) تكش: تكتب بالكسر وهى لفظ تركى، قديم معناه، قتال أو حصار أو موقعة فامبرى: تاريخ بخارى، حاشية ١، ص ١٥٠.

(٥) الذهبى: تهذيب سير أعلام النبلاء، ج ٣، ص ٩١.

(٦) بارتولد: تركستان، ص ٤٨٨، فامبرى: تاريخ بخارى، ص ١٥٠.

(٧) ابن الأثير: الكامل، نفسه، ص ٣٩.

(٨) دهستان: مدينة مشهورة من مدن طبرستان ومعناها بالفارسية موضع القرى، وهى بين جرجان وخوارزم، وهى آخر حدود طبرستان، أبو الفدا: تقويم البلدان، ص ٤٣٩.

(٩) ابن الأثير: الكامل: مج ١٠، ص ٣٩.

وقصد سلطان شاه ملوك الأطراف واستنجدهم على أخيه تكش وطرده، وكانت الحرب بينهم سجالا حتى مات سلطان شاه سنة ٥٨٩هـ / ١١٩٣م واستقر في ملك خوارزم أخوه تكش بن إيل أرسلان بن آتسز بن محمد بن نوشتكين^(١). كان سلطان السلاجقة في تلك الفترة السلطان أرسلان طغرل بن محمد بن ملكشاه.

ويقول الرواندي^(٢) إن هذا السلطان وصل إلى أسمى درجات العظمة والسلطنة، حتى توفي في منتصف جمادى الآخرة في سنة ٥٧١هـ / ١١٧٥م، وجلس مكانه ولده طغرل الصغير (٥٧١ - ٥٩٠هـ / ١١٧٥ - ١١٩٣م) وكان سيئ التدبير^(٣). وفي تلك الأثناء عمل تكش على تثبيت عرشه أولا، وأن يمد نفوذه من بعد ذلك صوب الغرب ليصبح قادرا على متابعة خططه الشرقية في حرية أكبر، وساعده على ذلك اضطراب الأمور في بلاط طغرل بن أرسلان^(٤). واستولى تكش على قلعة طبرك^(٥) وطلب تكش ابنة السلطان ليزوجها ابنه يونس خان، ولكن في سنة ٥٨٩هـ / ١١٩٣م، توجه طغرل إلى الري^(٦)، وحاصر قلعة طبرك، واستولى عليها، وقتل الحاكم الخوارزمي هناك وحملت جثته إلى خوارزم، واعتقل كبار الأمراء الخوارزميين^(٧).

وفي سنة ٥٩٠هـ / ١١٩٣م كان السلطان طغرل قد انشغل بالأنس والطرب، فانتهاز تكش الفرصة، وخلع على نفسه لقب السلطنة^(٨)، واستنجد به ثائر من أتباع السلطان السلجوقي يدعى «قتلغ إينانج»^(٩)، فاضطرب الجيش^(١٠)، ووافق ذلك وصول

(١) أبو الفدا: المختصر، مج ٢، ج ٣، ص ٥٣، ابن الوردي: تاريخ في الوردى، ج ٢، ص ٧٩.

(٢) راحة الصدور، ص ٤٣٠.

(٣) البنداري: آل سلجوق، ص ٢٧٥.

(٤) فامبرى: تاريخ بخارى، ص ١٥٠: ١٥١.

(٥) طبرك: بفتح أوله وثانيته والراء وآخره كاف، قلعة على رأس جبل بقرب مدينة الري على يمين القاصد إلى خراسان وعن يساره جبل الري الأعظم وهو متصل بخراب الري خربها السلطان طغرل بن أرسلان سنة ٥٨٨هـ / ١١٩١م، لمزيد من التفاصيل راجع ياقوت: البلدان، مج ٣، ج ٦، ص ٢٤٧: ٢٤٨.

(٦) الري: هي مدينة مشهورة من أمهات البلاد وأعلام المدن، وهي مدينة عجيب في فضاء من الأرض، وإلى جانبها جبل أقرع لا يثبت شيئا يقال له طبرك، القزويني: آثار البلاد، ص ٣٧٥، وهي من بلاد الجبل بفتح الراء المهملة وتشديد الياء: أبو الفدا: تقويم البلدان، ص ٤٣٠.

(٧) الرواندي: راحة الصدور، ص ٥٠٦.

(٨) الرواندي: نفسه، ص ٥١١: ٥١٢.

(٩) قتلغ إينانج: أى «المؤمن السيد» هو ابن عطابك إيلدركوز أى «المشرف على الناس»، وكان قد تنكر أشد عنه وأكرمه، قابل ذلك بالذهاب إلى خراسان وكتب إلى تكش ليمده بقوة يحارب بها سيده، فامبرى:

تاريخ بخارى، حاشية ١، ص ١٥١.
(١٠) الرواندي: راحة الصدور، ص ٥١٣.

رسل الخليفة العباسي الناصر لدين الله ت ٦٢٢هـ / ١٢٢٥، إلى خوارزمشاه تكش يشكو من طغرل، ويطلب منه قصد بلاده، ومعه منشور بإقطاعه البلاد، فسار من نيسابور إلى الري فتلقيه قتلغ إيناخ ومن معه بالطاعة، وساروا معه^(١)، وخرج السلطان من المدينة في الرابع والعشرين من جمادى الآخرة سنة ٥٩٠هـ / ١١٩٣م^(٢)، وخرج معه بعض عسكره^(٣)، والتقى العسكران بالقرب من الري، فحمل طغرل بنفسه في وسط عسكر تكش خوارزمشاه، فأحاطوا به وألقوه عن فرسه، وقتلوه في ٢٤ من شهر ربيع الأول من نفس السنة، وحمل رأسه إلى خوارزمشاه فسيره من يومه إلى بغداد، وسار خوارزمشاه إلى همذان^(٤) ومملك تلك البلاد جميعها وكان الخليفة الناصر لدين الله قد سير عسكره إلى نجدة خوارزمشاه وسير إليه الخلع السلطانية مع وزيره مؤيد الدين بن القصاب^(٥) فنزل على فرسخ من همذان، فأرسل إليه تكش خوارزمشاه يطلبه إليه، فقال مؤيد الدين: ينبغي أن تحضر أنت وتلبس الخلعة من خيمتي، وترددت الرسل بينهما في ذلك، فقبل لخوارزمشاه إنها حيلة عليك حتى تحضر عنده، ويقبض عليك، فدخل خوارزمشاه إليه قاصدا لأخذه، فاندفع بين يديه إلى بضع الجبال فامتنع به، فرجع خوارزمشاه إلى همذان، ولما ملك همذان وتلك البلاد سلمها إلى قتلغ إيناخ^(٦)، وأعطى ابنه «يونس خان» مدينة الري، وعاد إلى خوارزم^(٧).

وهكذا نجح تكش في أن يقيم له دولة لا تقل في اتساع رقعتها عن دولة السلاجقة الأول، وقد دامت فترة حكم تكش بن إيل أرسلان حتى سنة ٥٩٦هـ / ١١٩٩ بعد أن

(١) ابن الأثير: الكامل، مج ١٠، ص ٢٣٢.

(٢) الرواندي: راحة الصدور، ص ٥١٣.

(٣) الحسيني: زبدة التواريخ، ص ٣١٣.

(٤) همذان: وهي من بلاد الجبل، وتقع وسط بلاد الجبل. أبو الفدا: تقويم البلدان، ص ٤١٦: ٤١٧، ويقول ياقوت وهي أكبر مدينة بالجبال، ياقوت: البلدان، مج ٤، ج ٨، ص ٤٨٢ لمزيد من التفاصيل عن همذان راجع ياقوت: البلدان، مج ٤، ج ٨، ص ٤٨٢: ٤٨٧.

(٥) مؤيد الدين بن القصاب: هو أبو عبد الله بن محمد بن علي المعروف بالقصاب، وكان يتصف بالتهور والتكبر وقلة العقل وسوء التدبير، والدليل على ذلك ما فعله من تكش، ولكنه بعد أن هرب في الجبال وأثناء غياب يونس خان انتهز الفرصة، واتجه إلى همذان بأمر الناصر لدين الله، وسار تكش نحو همذان، ولكن شاءت إرادة الله أن يتوفى في هذا الوقت، وانتصر تكش، وأمر بخروج القصاب من قبره وفصل رأسه عن جسده وأن يحملوها إلى خوارزم. الرواندي: راحة الصدور، ص ٥٣٠.

(٦) ابن الأثير: الكامل، مج ١٠، ص ٢٣٣.

(٧) الرواندي: راحة الصدور، ص ٥١٩.

حكم البلاد فترة تصل إلى ثمانية وعشرين عاما. وخلفه في حكم البلاد ابنه علاء الدين محمد خوارزمشاه بعد أن كان قد أوصى أولاده بأن يتجنبوا كل نزاع مع كرخان شمال الصين لأنه واجهة قوية ضد ما يسمى بالخطر المغولي^(١).

خامسا: قيام الدولة الخوارزمية ٥٩٠هـ / ١١٩٣م:

بعد أن قضى السلطان تكش على آخر سلاطين السلاجقة طغرل سنة ٥٩٠هـ / ١١٩٣م، واصطدم بجيش الخليفة الناصر لدين الله، وهزمه في همذان، ونقش قبر مؤيد الدين القصاب، وقام بجز رأسه، وأرسلها إلى خوارزم مما اضطر الخليفة العباسي إلى محالفة تكش بعد هذه الهزيمة^(٢)، فأرسل برسالة من دار الخلافة إليه، وهو في همذان، وعندما قدم إليه «مجد الدين البغدادي» بالرسالة فألقى تكش خوارزمشاه عدة أثواب، كما نشر أمامه طبقا من الذهب، وقام تعظيما له، وحينما قال له مجد الدين «إن أمير المؤمنين يسلم عليك» قام خوارزمشاه، وأظهر الخضوع، وتم التحالف^(٣).

ففى سنة ٥٩٤هـ / ١١٩٧م ملك تكش مدينة بخارى عنوة، وعفا عن أهلها وأحسن إليهم وفرق فيهم مالا كثيرا، وأقام بها مدة ثم عاد إلى خوارزم^(٤).

وفى سنة ٥٩٥هـ / ١١٩٨م سار خوارزم شاه تكش إلى الري وغيرها، وسيرت الخلع من الخليفة إليه وإلى ولده علاء الدين محمد وتقليد ما بيده من البلاد^(٥).

وفى سنة ٥٩٦هـ / ١١٩٩م توفى خوارزمشاه تكش الذى أزال دولة بنى سلجوق، وذلك عندما تغيرت نيته على الخليفة الناصر وعزم على قصد العراق فجاءه الموت فجأة بدهستان وحمل إلى خوارزم وقام بعده ولده علاء الدين محمد^(٦).

(١) فامبرى: تاريخ بخارى، ص ١٥١: ١٥٢، الغنيمى: الإسلام والمسلمون فى آسيا، ص ٩٦: ٩٥، محمد عبد العظيم أبو النصر: المسلمون وحضارتهم فى آسيا الوسطى، ص ١٠٦، مصطفى دسوقي كسبه: المسلمون فى آسيا الوسطى والقوقاز، مؤتمر جامعة الأزهر ١٩٩٣م، ص ٨٦.

(٢) فامبرى: تاريخ بخارى، ص ١٥١.

(٣) الرواندى: راحة الصدور، ص ٥٣٤.

(٤) ابن الأثير: الكامل، مج ١٠، ٢٥٤.

(٥) ابن الأثير: نفسه، مج ١٠، ص ٦٢، ٢٦٣، عباس إقبال: إيران بعد الإسلام، ص ٣٢٨، حسن إبراهيم: النظم الإسلامية، ص ٧٦، ٧٧.

(٦) ابن العماد الحنبلى: شذرات الذهب، مج ٢، ج ٤، ص ٣٢٤، ويقول ابن الأثير أنه توفى بشهرستانه بلده بين نيسابور وخوارزم، مج ١٠، ص ٥٩٦، عباس إقبال: المصدر السابق، ص ٣٢٨، حسن إبراهيم: النظم الإسلامية، ص ٧٦، ٧٧.

سادسا: علاء الدين محمد بن تكش بن إيل أرسلان بن آتسز بن محمد بن نوشتكين خوارزمشاه (٥٩٦ - ٦١٧هـ / ١١٩٩ - ١٢٢٠م).

خلف علاء الدين محمد بن تكش أباه في حياته، وما أن اضطلع بشئون حكومته حتى عوقته الحوادث عن أن يزيع عن كاهله ما يثقل نفسه من أمر الحزبية^(١).

وفي سنة ٥٩٧هـ / ١٢٠٠م سار غياث الدين محمد بن سام ملك الغورية^(٢) واستولى على ما كان لخوارزمشاه بخراسان ولما ملك غياث الدين مرو سلمها إلى هندوخان بن ملكشاه بن خوارزمشاه الذي كان قد هرب من عمه علاء الدين محمد خوارزمشاه إلى غياث الدين ثم استولى غياث الدين على سرخس وطوس^(٣) ونيسابور وغيرهم، ولما استقرت هذه البلاد لغياث الدين عاد إلى بلاده، ولما اتصل بخوارزمشاه علاء الدين محمد عودة العساكر الغورية عن خراسان، جمع عساكره وسار عن خوارزم نصف ذى الحجة من نفس السنة، فلما قارب نسا وأبيورد^(٤) هرب هندوخان ابن ملك شاه من مرو إلى غياث الدين، وملك خوارزمشاه مدينة مرو، ثم سار إلى نيسابور، فملكها وعاد إلى خوارزم^(٥)، وأرسل إلى غياث الدين في الصلح وأجابه عن رسالته مع رجل يدعى الحسيني المرغني، فقبض عليه خوارزمشاه، وسار إلى هراة^(٦) ليحاصرها، فجاء ألب غازي وهو ابن أخت غياث الدين في عسكر من الغورية، وسار غياث الدين إلى هراة في عسكره، فأقام علاء الدين محمد على هراة أربعين يوما وعزم على الرحيل؛ لأنه بلغه انهزام أصحابه بالطالقان^(٧)، ثم ارتحل خوارزمشاه عن مكانه شبه المنهزم، وكان

(١) فامبري: تاريخ بخارى، ص ١٥٢.

(٢) الغور: بضم أوله وسكون ثانيه وآخره راء جبال وولاية بين هراة وغزنة وهي بلاد باردة واسعة موحشة، وهي مع ذلك لا تنطوى على مدينة مشهورة وأكبر ما فيها قلعة يقال لا «فيروزكوه» يسكن ملوكهم فيها. ياقوت الحموي: معجم البلدان، مج ٣، ج ٦، ص ٤٠٠.

(٣) طوس: مدينة بخراسان بقرب نيسابور، مشهورة ذات قرى ومياه وأشجار. القزويني: آثار البلاد، ص ٤١١.

(٤) أبيورد: هي مدينة بخراسان بقرب سرخس. القزويني: المصدر السابق، ص ٢٨٩.

(٥) ابن الأثير: الكامل، مج ١٠، ص ٢٧١ - ٢٧٣، أبو الفدا: المختصر، مج ٢، ج ٣، ص ١٠٠، ابن الوردي: تاريخ ابن الوردي، ج ٢، ص ١١٥.

(٦) هراة: بالفتح: مدينة عظيمة مشهورة من أمهات مدن خراسان. ياقوت الحموي: معجم البلدان، مج ٤، ج ٨، ص ٤٧١.

(٧) الطالقان: بفتح الطاء المهملة واللام والقاف ثم ألف ونون، وهي من أعمال خراسان. أبو الفدا: تقويم البلدان، ص ٤٥٨.

ذلك سنة ٥٩٨هـ / ١٢٠١م^(١)، وفي العام التالي ٥٩٩هـ / ١٢٠٢م توفي غياث الدين محمد ابن سام الغوري^(٢)، وكان أخوه شهاب الدين بطوس، عازما على قصد خوارزم، فأثاه الخبر بوفاة أخيه، فسار إلى هراة، وجلس للغزاء بأخيه^(٣)، وفي أول رجب سنة ٦٠٠هـ / ١٢٠٣م وصل خوارزمشاه محمد إلى مدينة هراة فحصرها إلى شعبان^(٤)، وجرت حروب كثيرة بين الخوارزمية والغورية يطول ذكرها^(٥)، وارتحل خوارزمشاه عن البلد، وسار إلى سرخس^(٦)، وفي رمضان من نفس السنة عاد شهاب الدين الغوري إلى خراسان، قاصدا خوارزم، وكان خوارزمشاه قد سار من سرخس إلى مرو فأقام بظاهرها، ورحل يسابق شهاب الدين إلى خوارزم والتقى العسكران «بسوقرا»، ومعناه الماء الأسود، فجري بينهما قتال شديد كثرت القتلى فيه من الفريقين، وأرسل خوارزمشاه إلى الأتراك الخطا يستنجدهم، وهم حينئذ أصحاب ما وراء النهر، فاستعدوا وساروا إلى بلاد الغورية في أول صفر سنة ٦١٠هـ / ١٢٠٤م، وانتهى القتال بالصلح، فاصطلحوا على أن الخطا لا يعبرون النهر إلى بلاده، ولا يعبر إلى بلادهم ورجعوا عنه، وخلص هو وعاد إلى بلاده^(٧).

وفي سنة ٦٠٢هـ / ١٢٠٥م، واستولى خوارزمشاه على بلاد الغورية بخراسان^(٨)، وأخذ خوارزمشاه مدينة بلخ^(٩)، وسار عنها إلى مدينة ترمذ^(١٠)، وحاصرها خوارزمشاه من جانب، والخطا من جانب آخر، فتسلم خوارزمشاه ترمذ، وسلمها إلى الخطا^(١١)، وقتل في نفس العام السلطان شهاب الدين محمد بن سام الغوري^(١٢)، وخلفه غياث الدين محمود بن غياث الدين محمد ولم يكن مثل أبيه، فاغتنم خوارزمشاه الفرصة^(١٣)،

- (١) ابن الأثير: الكامل، مج ١٠، ص ٢٧٩.
- (٢) الذهبي: دول الغسلام، ج ٢، ص ١٠٧، ابن كثير: البداية والنهاية، مج ٧، ج ١٣، ص ٤٣.
- (٣) ابن الأثير: الكامل: مج ١٠، ص ٢٨١.
- (٤) ابن الأثير: نفسه، مج ١٠، ص ٢٨٥.
- (٥) ابن كثير: البداية والنهاية، مج ٧، ج ١٣، ص ٤٦.
- (٦) ابن الأثير: الكامل، مج ١٠، ص ٢٨٥.
- (٧) ابن الأثير: الكامل، مج ١٠، ص ٢٨٥ - ٢٨٨، بارتولد: تركستان، ص ٥٠٣، ٥٠٤.
- (٨) بارتولد: تركستان، ص ٥٠٣.
- (٩) ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، مج ٣، ج ٥، ص ٨.
- (١٠) ترمذ: مدينة مشهورة من أمهات المدن راقبة على نهر جيحون من جانبه الشرقي. ياقوت الحموي: معجم البلدان، مج ١، ج ٢، ص ٤٤١.
- (١١) ابن الأثير: الكامل، مج ١٠، ص ٣١٥.
- (١٢) الذهبي: دول الإسلام، ج ٢، ص ١٠٩، أبو الفدا: المختصر، مج ٢، ج ٣، ص ١٠٦.
- (١٣) بارتولد: تركستان، ص ٥٠٧.

وملك مدينة الطالقان، وكان عليها نائب غياث الدين محمود الملك سونج^(١) فالتقى الجمعان وحمل سونج وحده وساق إلى أن وصل إلى خوارزمشاه، فترجل ورمى سيفه وقبل الأرض وقال: العفو، فتعجب خوارزمشاه فظن أنه سكران^(٢)، ولما فرغ خوارزمشاه من الطالقان، سار إلى هراة، فنزل بظاهرها، فملكها^(٣) وبذلك استولى خوارزمشاه على هراة، وكل إقليم الغور^(٤).

لقد رأينا أن علاء الدين محمد خوارزمشاه في نضاله مع آخر منافسيه بعد أن هزم أمراء الهند - الغور، لم يكن باستطاعته بطبيعة الحال أن يظل تابعا للدولة الخطا^(٥). ففي سنة ٦٠٤هـ / ١٢٠٧م عبر نهر جيحون لقتال الخطا^(٦)، ليغزو ما وراء النهر، فخرج في جيوش عظيمة، فالتقاء صاحب الخطا^(٧)، وجرت حروب طويلة، انهزم فيها المسلمون^(٨) وقتل منهم الكثير، وأسر جماعة منهم السلطان علاء الدين محمد مع أمير يسمى ابن مسعود أسرهما رجل وهو لا يشعر به ولا يدرى أنه السلطان^(٩). وأشار عليه الأمير مسعود، بأن يجعل السلطان نفسه مملوكا له، فصير نفسه مملوكا لذلك الأخير، وبقي يقف في خدمته، فقال الأمير للخطائي الذي أسرهما: ابعث رسولك مع غلامى - يقصد السلطان - هذا إلى أهلى ليرسلوا مالا فى فكاكى، ففعل وتمت الحيلة، وعاد خوارزمشاه إلى ملكه، ثم عرف الخطائي فسار مع ذلك الأمير إلى خدمة السلطان فأكرمه وأعطاه أشياء كثيرة^(١٠).

وبينما السلطان فى الأسر، بلغ الخبر أخاه على شاه، وهو بطبرستان^(١١)، فدعا إلى نفسه وقطع خطبة أخيه، واستعد لطلب السلطنة، واختلطت خراسان اختلاطا عظيما، فلما عاد خوارزمشاه محمد إلى ملكه خاف أخوه على شاه فسار إلى غياث الدين محمود ملك الغورية فأكرمه وأقام عنده بفيروزكوه^(١٢).

(١) ابن الأثير: الكامل، مج ١٠، ص ٣٢٣.

(٢) الذهبي: دول الإسلام، ج ٢، ص ١١٠.

(٣) ابن الأثير: الكامل، مج ١٠، ص ٣٢٤.

(٤) فامبرى: تاريخ بخارى، ص ١٥٣.

(٥) بارتولد: تركستان، ص ٥٠٧.

(٦) ابن الأثير: المصدر السابق، مج ١٠، ص ٣٣٣.

(٧) الذهبي: دول الإسلام، ج ٢، ص ١١٠.

(٨) ابن العماد الحنبلى: شذرات الذهب، مج ٣، ج ٥، ص ١٢.

(٩) ابن كثير: البداية والنهاية، مج ٧، ج ١٣، ص ٥٨.

(١٠) الذهبي: تهذيب سير أعلام النبلاء، ج ٣، ص ١٩٢، ١٩٣، ابن الوردي: تاريخ ابن الوردي، ج ٢، ص ١٢٣.

(١١) أبو الفدا: المختصر، مج ٢، ج ٣، ص ١١٠.

(١٢) فيروزكوه: هذا معناه الجبل الأزرق وأكثر ما يقولونه بالياء وببيروزه بلغة أهل خراسان الزرقة، وهى =

لما وصل خوارزمشاه إلى خوارزم أتته الأخبار بما فعله كزلك خان ملك الخطا وأخوه على شاه، وذكر ما حدث من هروب على شاه، فسار خوارزمشاه إلى خراسان، وبلغ كذلك خان وصوله، فأخذ أمواله وعساكره وهرب نحو العراق، ودخل خوارزمشاه نيسابور، وأصلح أمرها وجعل فيها نائبا^(١)، ويقول الذهبي^(٢): في حوادث سنة ٦٠٥ هـ/١٢٠٨ م، كانت الزلزلة العظمى بنيسابور، فدامت أياما وهلك خلائق كثيرة.

وسار إلى هراه، وملكها، وسلمها إلى خاله أمير ملك في سنة ٦٠٥ هـ/١٢٠٨ م، ثم أمر بقتل غياث الدين محمود وعلى شاه أخو السلطان فقتلها أمير ملك في يوم واحد في فيروزكوه، واستقامت خراسان كلها لخوارزمشاه محمد، وغياث الدين محمود هذا آخر ملوك الغورية^(٣).

ولما استقر أمر خراسان لعلاء الدين محمد خوارزمشاه، عبر نهر جيحون، فجمع له الخطا جمعا عظيما، وساروا إليه، واجتمع خوارزمشاه وصاحب سمرقند، وجرت حروب لم يكن قبلها شدة وصبرا، فانهزم الخطا هزيمة منكرة، وقتل منهم وأسر خلق لا يحصى، ثم قصد خوارزمشاه إلى إقليم ما وراء النهر، فملكها مدينة مدينة، وناحية ناحية حتى بلغ أوزكند^(٤)، وجعل نوابه فيها، وعاد إلى خوارزم ومعه سلطان سمرقند، وزوجة وابنته^(٥)، ثم غدر صاحب سمرقند بالخوارزميين، وأرسل إلى ملك الخطا يدعوه إلى سمرقند ليسلمها إليه، وأمر بقتل كل من كان في سمرقند من الخوارزمية، ومضى إلى القلعة ليقول زوجته ابنه خوارزمشاه^(٦)، فأمر خوارزمشاه عساكره بالتجهيز إلى ما وراء النهر، فعبّر منهم خلق كثير لا يحصى، ثم عبر هو بنفسه في آخرهم، ونزل على سمرقند^(٧)، ولم تطل مقاومة سمرقند^(٨)، وقتل صاحبها، ولم يترك أحدا ممن ينسب

=قلعة عظيمة حصينة في جبال غورستان بين هراة وغزنة وهي دار مملكة من يمتلك تلك النواحي، لمزيد من التفاصيل راجع ياقوت الحموي: معجم البلدان، مج ٣، ج ٦، ص ٤٥٢.

(١) ابن الأثير: الكامل، مج ١٠، ص ٣٣٦.

(٢) دول الإسلام، ج ٢، ص ١١١.

(٣) أبو الفدا: المختصر، مج ٢، ج ٣، ص ١١٠، ابن الوردي: تاريخ، ج ٢، ص ١٢٣.

(٤) أوزكند: بالضم والواو الزاي ساكنان، بلد ما وراء النهر من نواحي فرغانة، وهي آخر مدن فرغانة مما يلي دار الحرب ولها سور وقلعة وعدة أبواب وإليها يتجر الأتراك: ياقوت الحموي: معجم البلدان،

مج ١، ج ١، ص ٢٢٣.

(٥) ابن الأثير: الكامل، مج ١٠، ص ٣٣٧، ٣٣٨.

(٦) ابن الأثير: نفسه، مج ١٠، ص ٣٣٨، بارتولد: تركستان، ص ٥٢٤.

(٧) ابن الأثير: الكامل، مج ١٠، ص ٣٣٨.

(٨) بارتولد: تركستان، ص ٥٢٤.

إلى الخانية إلا وأمر بقتله، وملك سمرقند ورتب فيها وفي سائر البلاد من ينوب عنه، ولم يبق لأحد معه في البلاد حكم^(١).

وفي هذا الوقت بدأ ظهور المغول^(٢)، فإنهم كانوا ببادية الخطا فلما سمعوا بالهزيمة العظمى على الخطا قصدوهم مع كشلوخان^(٣)، فكتب صاحب الخطا علاء الدين محمد خوارزمشاه يقول: أما ما كان من أخذك بلادنا وقتلك رجالنا فمعفو عنه، فقد أتانا عدو لا قبل لنا به، فإن انتصروا علينا وأخذونا فلا دافع لهم عنك، فالمصلحة أن تنجدنا عليهم، فكاتبهم خوارزمشاه: ها أنا قادم لنصركم^(٤)، كما أرسل كشلو خان ملك المغول إلى علاء الدين محمد خوارزمشاه يقول: إن هؤلاء الخطا أعداؤك وأعداء آبائك وأعداؤنا فساعدنا عليهم، ونحلف أننا إذا انتصرنا عليهم لا نقرب بلادك^(٥)، فأجاب: إنني آت معكم لنستأصل الخطا، وسار بجيوشه إلى أن نزل عقب لفريقين يوهم كل فرقة أنه لها كمين، فوقع المصاف فانهمزمت الخطا، ثم أنه راسل كشلو خان ليقاسمه مملكة الخطا فأجابه: إن قنعت بالمسألة وإلا فسوف ترى^(٦)!! فأخذ جند خوارزمشاه يتخطفون المغول ويسرقونهم، فبعث إلى كشلو خان: ليس هذا فعل الملوك هذا فعل اللصوص، فإن كنت ملكا فاعمل مصافا^(٧)، ويجب أن نلتقى فيما أن تهزمنى وتملك البلاد التي بيدى، وإما أن أفعل بك ذلك، فكان يغالطه ولا يجيبه إلى ما طلب، وعلم خوارزمشاه أنه لا طاقة له به فكان يراوغه^(٨)، فأمر أهل ممالكه من ناحية الخطا^(٩)، ومنهم الشاش^(١٠).

(١) ابن الأثير: الكامل، مج ١٠، ص ٣٣٩.

(٢) السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص ٥٣٨.

(٣) خان: لقب أطلقه المغول على رؤسائهم الذين يتولون جزءا من الإمبراطورية المغولية، وهو يختلف عن لقب «خاقان» الذي أطلقوه على الرئيس الأعلى لدولتهم ومعناه الخان الأعظم. وقد استعمل المغول لقب «خان» أيضا بمعنى «خاقان» وربما كان ذلك من باب الرغبة في الاختصار، ومما هو جدير بالذكر في هذا المقام، أن الفرق بين «خان» و«خاقان» يشبه الفرق بين كلمتي «سلطان» و«ملك»، فالسلطان هو الملك الأعظم كالسلطان صلاح الدين الأيوبي، أما ملك فهو أحد ولاة السلطان من أبناء بيته، كالملك العادل حينما كان صاحب دمشق من قبل أخيه صلاح الدين الأيوبي. وقد وجد هذا الفرق أيضا عند الفرس، فإن لقب «شاهنشاه» ومعناه ملك الملوك يتميز عن لقب «شاه» فقط وهو الملك الصغير. المقرئى: السلوك ج ١، قسم ٢، حاشية ٤، ص ٣٠٧.

(٤) الذهبي: دول الإسلام، ج ٢، ص ١١٢، ١١٣.

(٥) ابن الأثير: الكامل، مج ١٠، ص ٣٣٩.

(٦) الذهبي: دول الإسلام، ج ٢، ص ١١٣.

(٧) الذهبي: نفسه، ج ٢، ص ١١٣.

(٨) ابن الأثير: الكامل، مج ١٠، ص ٣٤٠.

(٩) الذهبي: دول الإسلام، ج ٢، ص ١١٣.

(١٠) الشاش: وهى من أقاليم ما وراء النهر، والشاش وإيلاق مقدار عرضها مسيرة يومين فى ثلاثة أيام، وليس بخراسان وما وراء النهر إقليم على مقدارها فى المساحة ابن حوقل: صورة الأرض، ص ٤١٦.

وفرغانة^(١) وكاسان^(٢) وما حولها من البلاد النزهة العامرة - أمرهم بالجلاء إلى سمرقند وغيرها، ثم خر بها جميعا خوفا من المغول أن يملكوها^(٣)، ثم اتفق خروج هؤلاء المغول الآخر الذين خربوا الدنيا وملكهم جنكيز خان على كشلو خان المغولى الأول، فانشغل بهم كشلو خان عن خوارزمشاه، فخلا وجهه فعبّر النهر إلى خراسان^(٤).

وسوف نتحدث عن العلاقة بين الدولة الخوارزمية والمغول، فى الفصل الرابع، أما ما تبقى من الحديث فهو عن السلطان محمد واستيلائه على بقية الأقاليم والمدن.

ففى سنة ٦١١هـ / ١٢١٤م، أرسل خوارزمشاه أميرا من أخصاء أمرائه عنده، فى جيش، ففتح كرمان^(٥) ومكران^(٦) وعلى حدود بلاد السند^(٧)، وخطب له بتلك البلاد، وكان خوارزمشاه لا يصيف إلا بنواحي سمرقند، خوفا من المغول وكشلو خان أن يثبتوا على أطراف تلك البلاد التى تتأخمهم^(٨).

وفى سنة ٦١٢هـ / ١٢١٥م، ملك خوارزمشاه مدينة غزنة^(٩) وأعمالها^(١٠)، وقيل أن ملك خوارزمشاه غزنة سنة ٦١٣هـ / ١٢١٦م، ترك ولده جلال الدين بها مع جماعة من عسكره وأمرائه^(١١)، ثم سار سنة ٦١٤هـ / ١٢١٧م، إلى بلاد الجبل^(١٢)، وغيرها

(١) فرغانة: وهى من أقاليم ما وراء النهر، وقصبتها أخيسكت، ويقال إن بها أربعين منبرا، المقدسى: أحسن التقاسيم، ص ٢١٤.

(٢) كاسان: مدينة كبيرة فى أول بلاد تركستان من وراء نهر سيحون وراء الشاش، ولها قلعة حصينة، وعلى بابها وادى أخيسكت. ياقوت الحموى: معجم البلدان، مج ٤، ج ٧، ص ١١٤.

(٣) السيوطى: تاريخ الخلفاء، ص ٥٥٣.

(٤) ابن الأثير: الكامل، مج ١٠، ص ٣٤٠.

(٥) كرمان: وهى ولاية مشهورة وناحية كبيرة معمورة ذات بلاد وقرى ومدن واسعة. ياقوت الحموى: البلدان، مج ٤، ج ٧، ص ١٣٢.

(٦) مكران: بالضم ثم السكون وراء آخره نون أعجمية، وهى ولاية واسعة تشمل على مدن وقرى وهى بين كرمان من غربها وسجستان بشمالها والبحر جنوبا والهند فى شرقها. ياقوت: معجم البلدان، مج ٤، ج ٨، ص ٣٠٥: ٣٠٦.

(٧) السند: هى بلاد يمين بلاد الهند وكرمان وسجستان والبعض يجعل مكران منها. ياقوت الحموى: معجم البلدان، مج ٣، ج ٥، ص ٨٢.

(٨) ابن كثير: البداية والنهاية، مج ٧، ج ١٣، ص ٨٠.

(٩) غزنة: مدينة عظيمة على طرف خراسان، وهى الحد بين خراسان والهند. ياقوت: معجم البلدان، مج ٣، ج ٦، ص ٣٨٨.

(١٠) الذهبى: دول الإسلام، ج ٢، ص ١١٨.

(١١) ابن الأثير: الكامل، مج ١٠، ص ٣٣٦.

(١٢) بلاد الجبل: وتشمل على عدة مدة مشهورة وأعظمها همذان والدينور وأصبهان وقم ولها مدن أصغر كاسان، ونهاوند واللورد والكرج والبرج. وابن حوقل: صورة الأرض، ص ٣٠٦.

فملكها، ودخل أذربك من البهلوان صاحب أذربيجان^(١) وأران^(٢) في طاعة خوارزمشاه، وخطب له بيلاده^(٣)، ثم عزم على المسير إلى بغداد للاستيلاء عليها وقد كان بعض العسكر بين يديه وسار خوارزمشاه في أثرهم من همذان يومين أو ثلاثة فسقط عليهم من الثلج ما لم يسمع بمثله فهلك دوابهم وخاف من حركة المغول على بلاده، فولى على البلاد التي استولى عليها وعاد إلى خراسان وكان معه سبعون ألفا من الخطا^(٤) وقطع خطبة الخليفة الناصر من بلاد خراسان سنة ٦١٥هـ / ١٢١٨م، وكذلك أقاليم ما وراء النهر، وبقي إقليم خوارزم ومدينتي سمرقند وهراة لم يقطعوها منهم، فإن أهل هذه البلاد لا يلتزمون بمثل هذا بل يخطبون لمن يختارون ويفعلون نحو ذلك^(٥).

وبذلك عاد علاء الدين محمد خوارزمشاه إلى خراسان دون أن يحقق هدفه وهدف آبائه بالاستيلاء على بغداد، وكان المغول في ذلك الوقت يتخطفون ويتنقلون حتى سنة ٦١٥هـ / ١٢١٨م^(٦).

وفي سنة ٦١٦هـ / ١٢٢٩م، خرج «المغول» لغزو البلاد الإسلامية، فاستولوا عليها الواحدة تلو الأخرى، ولم يتحمل علاء الدين محمد هذه الصدمة فأسلم الروح سنة ٦١٧هـ / ١٢٢٠م، وتم لهم الاستيلاء على إقليم خوارزم (٦١٧ - ٦١٨هـ / ١٢٢٠ - ١٢٢١م)^(٧).

وبذلك اضطربت الأحوال السياسية والاجتماعية للدولة الخوارزمية وأصبحت أقاليمها خاوية على عروشها، وباتت طعمة للمغتصبين من الحكام والقواد.

سابعا: وفاة السلطان علاء الدين محمد خوارزمشاه (٦١٧هـ / ١٢٢٠م)

عندما استولى المغول على بعض البلاد الإسلامية، أرسل جنكيز خان عشرين ألف فارس في أثر السلطان علاء الدين محمد خوارزمشاه، فعبروا نهر جيحون وصاروا مع

(١) أذربيجان: أذربيجان إقليم واسع من أشهر مدائنها تبريز وهي العاصمة ومن مدنها خوى وسلماس وأرمية وأردبيل وغير ذلك، وهو صقع جليل ومملكة عظيمة الغالب عليها الجبال وفيها قلاع كثيرة. ياقوت الحموي: معجم البلدان، مج ١، ج ١، ص ١٠٩.

(٢) أران: وهو إقليم مشهور يتاخم أذربيجان وأران أيضا قلعة من نواحي قزوین. أبو الفدا: تقويم البلدان، ص ٣٨٦.

(٣) أبو الفدا: المختصر في أخبار البشر، مج ٢، ج ٣، ص ١١٨، ابن الوردي: تاريخ، ج ٢، ص ١٣٢.

(٤) الذهبي: دول الإسلام، ج ٢، ص ١١٩.

(٥) أبو الفدا: المختصر، مج ٢، ج ٣، ص ١١٨، ابن الوردي: تاريخ ابن الوردي، ص ١٣٢.

(٦) السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص ٥٥٣.

(٧) لمزيد من التفاصيل: راجع الفصل الرابع ص ١٦٨ - ١٧٠.

خوارزمشاه فى بر واحد فلم يشعر وعسكره إلا والمغول معه فتفرق عسكره، ورحل السلطان فى نفر من خواصه ووصل إلى نيسابور^(١)، والمغول معه فتفرق فى أثره، فلما قربوا منه رحل إلى مدينة مازندان، وهم فى أثره، فرحل حتى وصل إلى مرسى من بحر طبرستان^(٢)، وكان له فى البحر قلعة، فعبر البحر ومعه أصحابه، حتى يئس المغول من اللحاق به، واستقر فى هذه القلعة حتى توفى سنة ٦١٧هـ / ١٢٢٠م^(٣)، ولم يكن هناك كفن له فتم تكفينه فى قميص أحد رجاله^(٤).

وكان السلطان علاء الدين محمد خوارزمشاه قد أعطى ولاية العهد إلى ولده قطب الدين أزلاغ شاه^(٥)، فلما اشتد المرض بالسلطان فى القلعة، أحضر جلال الدين وأخويه أزلاغ شاه وأق شاه، وقال: إن عرى السلطنة قد انقسمت، والدولة قد وهت قواعدا وتهدمت وهذا العدو قد تأكدت أسبابه وتشبثت بالملك أظفاره، وتعلقت أنيابه، ولن يأخذ بثأرى منه إلا ولدى جلال الدين^(٦).

وبذلك آلت السلطة فى الدولة الخوارزمية إلى ابنه جلال الدين^(٧).

ثامنا: السلطان جلال منكبرى^(٨) وجهاده ضد المغول

(٦١٧ - ٦٢٨هـ / ١٢٢٠ - ١٢٣٠م)

كان السلطان علاء الدين محمد خوارزمشاه، وهو على فراش الموت (٦١٧هـ / ١٢٢٠م) قد أوصى بولاية العهد إلى ولده جلال الدين منكبرى، وكان يرى أن ابنه جلال الدين هو الشخصية التى تصلح للوقوف أمام جحافل المغول^(٩).

- (١) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ، مج ١٠، ص ٤٠٦.
- (٢) بحر طبرستان، هو بحر الخزر وجرجان وآيسكون كلها واحد، وهو بحر واسع عظيم لا اتصال له إلا بغيره، ويسمى أيضا الخراسانى والجبلى وربما سماه بعضهم الدورة الخراسانية. ياقوت الحموى: معجم البلدان، مج ١، ج ٢، ص ٢٢٧.
- (٣) أبو الفداء: المختصر فى أخبار البشر، مج ٢، ج ٣، ص ١٢٧.
- (٤) عباس إقبال: إيران بعد الإسلام، ص ٣٥٩، بارتولد، تركستان، ص ٦٠٣.
- (٥) النسوى: سيرة جلال الدين منكبرى، ص ٧١، ابن الوردى، تاريخ ابن الوردى، ج ٢، ص ١٥١.
- (٦) النسوى: سيرة جلال الدين منكبرى، ص ١٢٠.
- (٧) القرمانى: أخبار الدول وآثار الأول فى التاريخ، ص ٢٧٦.
- (٨) منكبرى: معناه «أطفس الأنف»، فالمقطع الأول منه مرض يصيب الأنف ومنخاز الخيل بعبارة أدق. وعلى هذا ينتهى لقب هذا الأمير إلى معنى غير شاعرى هو «من يسيل المخاط من أنفه»، أما فامبرى فقد لقبه منكبرى أى مبعوث السماء، تاريخ بخارى، حاشية (١)، ص ١٧٧.
- (٩) النسوى: سيرة جلال الدين منكبرى، ص ١٢٠، عفاف سيد صبرة: التاريخ السياسى للدولة الخوارزمية، ط ١، دار الكتاب الجامعى، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م، ص ١٩٣.

وكان جلال الدين منكبرتي له ملك غزنة، وبلاد الهند، وعندما علم بوفاة والده، عاد هو وأخويه أزلاغ شاه وأق شاه إلى إقليم خوارزم^(١).

وبعد وصول جلال الدين وأخويه، وإعلان ولاية عهد جلال الدين، لم يرض أمراء الأتراك لهذا الأمر، وأعلنوا معارضتهم لجلال الدين وصمموا على قتله، فخرج ومعه ثلاثمائة فارس^(٢)، فالتقى بسبعمئة جندي من المغول، ففرض عليهم بهجمة واحدة، واستولى على خيلهم وأسلحتهم، وقتل من استطاع الفرار منهم حتى من لجأ من هؤلاء المغول إلى الاعتصام خوفاً بترع نسا أخرجهم جنوده من الترع وضربوا أعناقهم، وأخذ طريقه إلى مدينة نيسابور^(٣). فوصل إليها بسرعة، إلا أن أخويه أزلاغ شاه وأق شاه، وقعا في قبضة المغول، فقتلوهما واستولوا على ما معهما من جواهر ونفائس وباعوها بثمن بخس^(٤).

وفي سنة ٦١٨هـ / ١٢٢١م، دخل جلال الدين مدينة هراة، وجمع جيشاً كبيراً، واستعد لمواجهة المغول، فسار إلى غرنة فملكها^(٥)، وقد اجتمع إليه ممن سلم من عسكر أبيه ستين ألفاً، وقصد المغول غرنة، فخرج إليهم جلال الدين، ومن معه من العسكر، فاقتتلوا قتالاً شديداً، لمدة ثلاثة أيام، فانتصر المسلمون، وانهزم المغول^(٦)، وتبعهم المسلمون يقتلونهم كيف شاءوا، وانتصر المسلمون، وانهزم المغول للمرة الثانية بقيادة جنكيز خان، وقتل المسلمون الكثير، وغنموا شيئاً كثيراً^(٧). ثم أن المسلمين جرى بينهم فتنة من أجل الغنائم^(٨)، وحمل المغول على خيمة جلال الدين، فانكسرت وأسر ابن جلال الدين، وتبدد نظامه^(٩)، فهرب إلى بلاد الهند^(١٠).

(١) النسوى: سيرة جلال الدين، ص ١٢٢، حافظ أحم حمدي: الدولة الخوارزمية والمغول، ص ١٦٢.

(٢) Dohsson. M. Le. Barom: historie des Mongols depuis Ginguiz- Khan Jusqua Timour Bey. (٢) Ou Tamerlan (pairs 1824) p.262.

(٣) عباس إقبال: تاريخ المغول منذ حملة جنكيز خان حتى قيام الدولة التيمورية، ترجمة عبد الوهاب علوب، مراجعة حسن النابودة، المجمع الثقافي، أبو ظبي، ١٤٢٠هـ / ٢٠٠٠م، ص ٨٥، محمد عبد العظيم: تاريخ المسلمين وحضارتهم في آسيا الوسطى، ص ١٢٣.

(٤) عباس إقبال: إيران بعد الإسلام، ص ٣٦٥.

(٥) النسوى: سيرة جلال الدين، ص ١٣٤.

(٦) ابن الأثير: الكامل، مج ١٠، ٤٢٢.

(٧) أبو الفدا: المختصر في أخبار البشر، مج ٢، ج ٣، ص ١٢٨.

(٨) لمزيد من التفاصيل: راجع الفصل الرابع، ص ١٧٥.

(٩) الذهبي: دول الإسلام، ج ٢، ص ١٢٦.

(١٠) ابن الوردي: تاريخ ابن الوردي، ج ٢، ص ١٣٩.

وظل جلال الدين في بلاد الهند، يعاني من هول ما أصاب دولته، من انهيار، بعد أن قدر لهذه الدولة أن تصل إلى ذروة المجد^(١).

وعلى الرغم من المعاناة التي عاناها جلال الدين في بلاد الهند، إلا أنه كان مصمما على العودة، ومواصلة الجهاد ضد المغول الكفار. فخرج من بلاد الهند في سنة ٦٢١هـ / ١٢٢٤م، ووصل إلى كرمان، ومعه أربعة آلاف فارس فاستولى عليها^(٢)، ثم سار إلى خوزستان^(٣)، وقوى أمره على المغول^(٤)، وأراد توسيع نفوذه على حساب القوى المتعددة القائمة في ذلك الوقت^(٥)، فاستولى على أصفهان وعلى عراق العجم ثم سار إلى فارس وانتزعها من أخيه، وكاتب الخليفة الناصر لدين الله (٥٧٥ - ٦٢٢هـ / ١١٧٩ - ١٢٢٥م)، ثم سار حتى قارب بغداد^(٦)، فاستعدت بغداد للحصار، ونهبت الخوارزمية البلاد وامتلاؤها مغانم، وقوى جلال الدين وعسكره الخوارزمية^(٧)، واستولى على مملكة أذربيجان سنة ٦٢٢هـ / ١٢٢٥م^(٨)، ثم جرت حروب بين جلال الدين والكرج^(٩)، وانتصر جلال الدين، وانهزم الكرج^(١٠).

وفي سنة ٦٢٥هـ / ١٢٢٨م، عاود المغول بلاد جلال الدين خوارزمشاه وجرت بينهم حروب ظفر المغول في أغلبها^(١١). وفي سنة ٦٢٧هـ / ١٢٢٩م، فتح مدينة أخلاط. وانهزم بعدها على يد علاء الدين كيقباز السلجوقي^(١٢).

وفي منتصف شوال سنة ٦٢٨هـ / ١٢٣١م قتل جلال الدين منكبرتي^(١٣)، وبذلك انتهت الدولة الخوارزمية، التي كانت دولة قوية هامة من دويلات الشرق الإسلامي.

(١) حافظ حمدي: الدولة الخوارزمية والمغول، ص ١١٩.

(٢) النسوي: سيرة جلال الدين، ص ١٧٤.

(٣) خوزستان: هو اسم لجميع بلاد الخوزوستان كالنسبة في كلام الفرس، راجع ياقوت الحموي: معجم البلدان، مج ٢، ج ٣، ص ٢٥٩، ٢٦٠.

(٤) المقریزی: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج ١، قسم ١، ص ٢١٥.

(٥) حافظ أحمد حمدي: الدولة الخوارزمية والمغول، ص ٢٠٤.

(٦) أبو الفدا: المختصر في أخبار البشر، مج ٢، ج ٣، ص ١٣٤.

(٧) ابن الوردي: تاريخ ابن الوردي، ج ٢، ص ١٢٩.

(٨) الذهبي: دول الإسلام، ج ٢، ص ١٢٩.

(٩) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مج ٢، ص ٤٤٩، ٤٥٠.

(١٠) لمزيد من التفاصيل: راجع الفصل الرابع، جلال الدين وجهاده ضد المغول، ص ١٧٤ - ١٨٥.

(١١) ابن الوردي: تاريخ ابن الوردي، ج ٢، ص ١٤٧.

(١٢) لمزيد من التفاصيل: راجع الفصل الرابع ص ١٨٤ - ١٨٥.

(١٣) عباس إقبال: تاريخ المغول، ص ١٦٣.